مكانة الأفعى في المعتقدات الرافدانية

عبدالأمير الحمداني

تتبوأ الأفعى مكانةً مهمةً وحيويةً في حياة شعوب الشرق الأدنى القديم، وبلاد وادي الرافدين منها على وجه الخصوص، يبدو ذاك واضحاً من خلال المهام التي أنيطت بها أو الأدوار والأفعال التي نسبت اليها والتي وصلت الينا عن طريق الآثار المادية او المدونة لأغلب الأدوار التاريخية التي مرّت بها الحضارة الرافدانية. فللأفعى حضورٌ واضحٌ في ثنائية الحياة والموت ، طرد وجلب الشرور والمساعدة في العلاج من الأوبئة والأمراض أو مايتعلق بطقوس الخصب والنسل ، والأهم من ذلك، في دورها الأسطوري في تشكّل المعتقدات الدينية، بحيث تكاد لا تخلو ديانة قديمة من دور مميّز وبارز للأفعى(الأنثى) او الثعبان(الذكر). ان لكل ثقافة ثعبانها في الاساطير ، وغالبا ما ينظر اليه على انه رمز للحكمة والطب والمعارف السرية والسحر والخلود والتجديد المستمرللحياة،أما الأفعى فهي رمز للآلهة الأم العظيمة والطاقة الكونية المؤنثة.وأمعاناً بالفائدة سوف نأتي على ذكر هذه الأدوار والأفعال بشيء من التفصيل مقرونة بما يعززها من نماذج وأمثلة خلـّفها لنا سكان العراق القديم.

الأفعى/ الثعبان إلهاً ورمزاً:

من كبار الآلهة الرافدينية الذي إتخذ من الثعبان لقباًوصفة له هو إنكي،إله الحكمة والفلسفة والمسؤول عن شؤون المياه وإليه يعزى خلق الإنسان وإبتكارأسباب ومقومات تطوّره وعناصر مدنيـّته .كان إحدى القابه (الثعبان العظيم الواقف فوق أريدو) ويصوّر أحيانا بهيئة مخلوق ذي جسم ورأس ثعبان، واستمر هذا الرمز له حتى في الفترة الأكدية بعد ان تغيـّر اسمه الى (أيا)(صورة 1أ و ب).

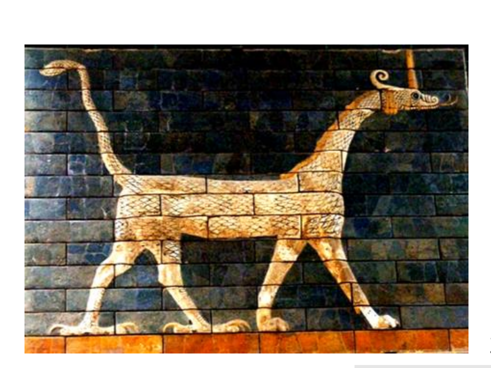
صورة1 أ

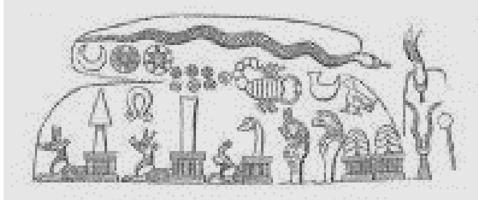


صورة1 ب

وان الثعبان من اهم رموز ابنه مردوخ إله مدينة بابل الرئيس، فعادةً ما يصوّر في الأختام الإسطوانية والمنحوتات والى جواره الثعبان المسمى(موشخوشو أو موشوشو)(صورة2) وهو حيوان خرافي نقشت صورته على واجهة بوابة عشتار في بابل التي أقيمت في العصر البلبلي الحديث)(صورة3). وكانت الأفعى رمزاً له ،نقشت على أحجار الحدود(كودورو) في العصر البابلي الوسيط(الفترة الكاشيـّة))(صورة4) .

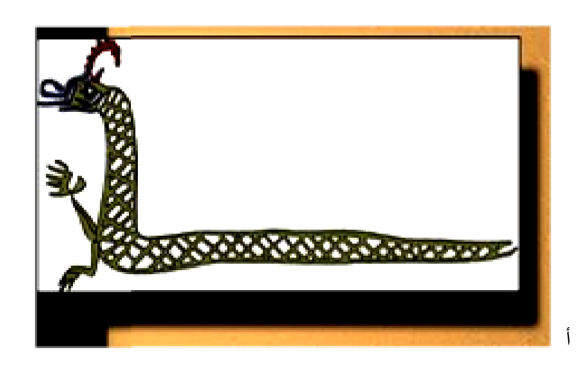

صورة2


صورة 3


صورة 4

يرد في ملحمة الخليقة البابلية أن صراعاً قد نشب على السلطة والحكم بين الإله مردوخ و الإلهة تيامة ، وأن الصراع قد حُسم لصالحه. ففي الملحمة تبدو إلالهةُ تيامة غاضبةُ، تُقرّرُ تَحْطيم باقي الآلهةِ ، تَخْلقُ جيشاً كبيراً مِنْ الشياطينِ، تُقرّرُ الآلهةَ بأنّ تيامة يَجِبُ أَنْ تُقْتَلَ، لَكنَّهم جميعاً خائفون،يُوافقُ ألإله مردوخ على قَتْلها شريطة أن يُجْعَلُ إلهَاً أعلى لبلاد بابل ثم يَقْتلُها ليتفرغ لخلق السماءِ والأرضِ، يَقْطعُ جسمها إلى نصفين. مِنْ عيونِها تَغْمرُ دجلةَ والفراتَ بالمياه.وتيامة هذه صُوّرت بهيئة أفعى عظيمة جبّارة (صور5 أ،ب) ،توصف على أنها المياه المالحة أو البحر وتمثل قوى الفوضى أو العدم، قد شاركت في عملية خلق الكون والموجودات سوية مع أبسو(المياه العذبة). من المناسب ان نشير الى ان سكان العراق القديم- وفي الجزء الجنوبي منه بشكل خاص- يشبّهون الفرات ودجلة بالأفعى،ذلك ان للنهر شكل أفعواني وهو يسير متعرجاً. وبسبب مايخلفه النهر من دمار وخراب في القرى والحقول في موسم الفيضان وزيادة المياه ،فإنهم يصفونه بالثعبان وهم يلاحظون سرعة جريانة وقوة تدفق أمواجه (1) .


صورة5 أ


صورة5 ب

كما ان هناك إلهً آخر إتخذ من الأفعى رمزاً له حتى منتصف الالف الثالث ق.م ثم استبدل رمزه بصورة بشر نصفه الأسفل بهيئة أفعى)(صورة7 أ،ب). ذلك هونيراه ،الإله الثانوي لمدينة الدير(تل العقير) و

بمثابة وزير للإله ستران اله المدينة الرئيس.ولنيراه مهمة مقدّسة تتمثل بحماية معبد (إيكور) في نيبور/ نفر،المكرّس لعبادة انليل،إله الهواء.


صورة7 أ


صورة7 ب

إنً من أهم القاب الإله دموزي هو الثعبان العظيم أو ثعبان السماء،في السومرية(Ushum-gal) . أما الإلهة اينانا فانها تحمل إسم أم/ والدة الثعبان العظيم (Ama-ushum-gal-an-na)، وهو إسم عادة ما يرد مقترناً ومرادفاً لإسم آخر حملته إينانا ، وهو سيدة السهل(Nin-edin-na).كما انها صُوّرت بهيئة المحاربة وهي تحمل النبال والسهام و تمسك الأفاعي بيديها إمعاناً في إظهار سطوتها وقوّتها بوصفها إلهة الحرب (صورة8) . صورة ثانية لإينانا منقوشة على لوح فخاري وهي تقف عارية تمسك أفعى كبيرة بكلتا يديها (صورة 9). فيما يُظهر مشهد منقوش على جرة من الحجر،إينانا وهي تتقاتل مع ثعبان (صورة 10)

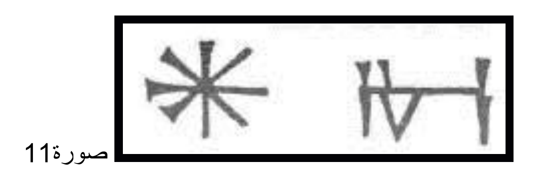

صورة8


صورة 9



صورة 10. جرّة نذرية مصنوعة من حجر الكلورايت الاخضر ،منقوشة بنحت بارز يمثـل قطة كبيرة تتصارع مع ثعبان . الراجح أن هذا المشهد يصوّر واحدة من اعظم الاساطير المدو ّنة - بصيغ مختلفة - في جميع انحاء الشرق الأدنى وهي (إينانا / عشتار والعالم السفلي). تتحدث النصوص السومرية عن نزول اينانا ، الهة الحب والحرب ، الى العالم السفلي (عالم الأموات). هنا تبدو في شكل قطـة كبيرة وهي واحدة من سماتها الحيوانية ، في صراع مع الوحوش وقوى الشر في العالم السفلي ،المتمثلة في هيئة ثعبان وحشي. يوجد حقل من الكتابة المسمارية يقرأ بـ: إينانا والثعبان. عثر على الجرة في مدينة نيبور(نفر) داخل معبد مكرّس لعبادة الإلهة اينانا، يعود تأريخه الى عصر فجر السلالات السومرية حوالي 3000-2400 ق.م

أن واحدا ً من الرموز المسمارية التي تؤلف اسم إينانا ما هو الا تطوّر لشكل الأفعى الملتفـّة حول عصا (صورة11). ولعل الأفعى التي سرقت عشبة الخلود من جلجامش إنما هي إينانا،حدث ذلك بسبب رفض جلجامش الزواج منها بعد ان طلبت هي ذلك،حيث ظلت كاتمة غيظها منه وحقدها عليه، ملاحقة له. وكنوع من الأنتقام لكرامتها تجسّدت بهيئة أفعى وسرقت منه نبتة الخلود التي عاد بها بعد تعب وجهد طويلين ، وخسرما كان يطمح للحصول عليه ، وهو الخلود، وربحت الحية حياتها من خلال خلودها وتجدد شبابها في اللحظة التي تشعر بالوهن والعجز سنوياً .وهي حيلة إستفادت منها بعد ان فشلت في تعطيل مهمة جلجامش وصديقه إنكيدو في الوصول الى غابة الأرز بإرسالها الثور السماوي لكي يقف حائلا ً في طريقهما حيث تمكنا منه وارادياه قتيلا ً.



صورة11

من الجدير ذكره أن قصة (نزول إينانا الى العالم السفلي) تسرد كيف أن إينانا وعند خروجها من العالم السفلي رأت دموزي لابساُ أفخر ثيابه وهو يجلس في ظل شجرة في سهل كولاب، وقد أزعجها مظهره وهو غير مكترث بما حلّ بها(وهي زوجته)،عندئذٍ أمرت شياطين أجولا وبمساعدة الثعبان العظيم أن يمسكوا به ويحملوه الى العالم السفلي ليذوق هول العذاب(صورة12). وعندها رفع دموزي يديه باكيا ً ومتوسلا ً الى صهره

الإله أوتو ليخلـّصه من قبضة شياطين أجولا، طالباً منه أن يحيل يداه ورجليه الى يدي ورجلي ثعبان . وتذكر الأسطورة السومرية ان الإله أوتو إستجاب لدعاء دموزي فجعل(جسده مثل صل ٍ يجوب السهول العالية) وجعل روحه (مثل طير ٍ يفلت من مخالب نسر), وبذلك مكنّه من ان يفلت من الشياطين روحاً وجسداً.



صورة12 . طبعة ختمٍ إسطواني يبدو فيها دموزي وهو يمسك بخِرافِه ويرعى بها في السهل، حيث تقوم الشيطانة(أوكالا) التي تشبه الثعبان بتقييده وحْملُه إلى العالم السفلي وتصبح عروسه، بدلاً من أينانا أَو بديلاً لها. يبدو في أربعة مشاهدِ ألأول:وهو يرتدي كامل ملابسه مع الصولجانِ والتاجِ، يديه وقدميه مقيّدة ومرْبوطة بالأعوادِ، المشهد الثاني: ينحِدر وهوشبه متعري عن طريق بوابة العالم السفلي، المشهد الثالث: عاري بالكامل وهو في العالم السفلي، وأخيراً، المشهد الرابع: يرتدي كامل ملابسه ويحمل غصني شجرة مثمرة وهو يصعد إلى سطحِ الأرضَ كُلّ ربيع كقوة الحياةَ في نمو النباتِ الجديدةِ. دموزي هو الرجلَ الذي خُلِقَ من أجل أن يكَدْح ويجدّ في تَغْذِية الآلهةِ ويُحرّرُهم مِنْ العمل المضني.

<u>الإله - الثعبانَ ننجشزيدا</u>:

هو الحامي والحارس الشخصي للملك جوديا. صوف بأنه رديف ننجرسو، كان وصيا ً على الباب المؤدي الى العالم السفلي، مركز عبادته في مدينة جيش- باندا وتقع في منطقة بساتين بين أور ولجش، رمزه الثعبان المقرّن المعروف بإسم(باسمو bashmu) وهو ثعبان عملاق وطويل ،متعدد الأفواه والألسن.كما يبدو في فترة سلالة لجش الثانية بهيئة إله تبرز الأفاعي خلف كتفيه وهي صاعدة للأعلى (صور11أ، ب ، 12) ، استمر هذا المثال حتى في العصر البابلي القديم. اما في الفترة الحثيّة فقد صوّر وهو يمسك الأفاعي بيديه ويضمّـها الى صدره،بينما تتدلى رؤوسها الى الأسفل.



صورة 11 أ . رسم تخطيطي لمشهد منقوش على ختمِ إسطواني يظهر ألإله(الثعبان) ننجشزيدا وهو يقوم بتقديم الملك جوديا عاهل لكش الى ألإله إنكي ألذي يجلس على العرش.



صورة 11ب. ختم آخر،يتضمن المشهد نفسه مع وجود ألإلهة (لاما) تقف خلف جوديا ، وهي الإلهة الرحومة والعطوفة ، دائما تبدو رافعةً ذراعيها بالتضرّع والدعاء.



صورة 12. نقش حجري رائع قليل البروز يظهر جوديا ملك لكش (نحت وجهَه بصورة غير كاملة) وقد أمسكه الإلهِ ننجشزيدا من يده وهويقوده إلى إله جالسَ على عرش (إنكي)الذي يُوزّعُ الماء العذبَ الفوّار حيث تحتاجَه محاصيلِ مزارع لجش في الري،.تبدو رؤوسِ التنينِ- الثعبانِ وهي تخرج مِنْ أكتافِ ننجشزيدا. إنّ الإلهَ الذي يَقِفُ أمام ننجشزيدا غير معروفُ . كوديا يَحْملُ سعفة نخيل في يَدِّه في إشارة الى الإلهة (بائو) إلهة المزارع والبساتين.

من القابه (سيد الشجرة المثمرة او الجيدة أو شجرة الحياة) في بعض الاحيان قد يكون هناك بعض التفاعل بين الشجرة و العضو التناسلي الذكري ، ولذلك فانه يمكن ان يكون إله الخصوبه ايضا ً،ربما خاص يدويلة- مدينة لجش(صورة 13) .وهو مسؤول عن نمو جذور الأشجار ، ذلك ان جذور الشجرة تستخلص الغذاء من باطن الارض ولها شكل إفعواني يشبه الثعابين (2) (صورة 14و15) ،بالإضافة الى مسؤوليته عن إخضرار الأشجار في فصل الربيع ،ويبدو انه مرتبط مع الاشجار والثعابين والخصوبة .فيما تذكر نصوص سلالة لجش الثانية بأنه قد شارك في طقوس الزواج المقدس في دويلة - مدينة لجش، حيث كان يقام إحتفال ثانوي في مدينة جرسو يتمثـل بزواجه من الإلهة جشتن- أنـّا(كرمة السماء) ،ذلك ان الإله ننجرسو كان قد عهد اليه بخصوبة الأرض.ومن الراجح ان ننجشزيدا كان في بعض الأحيان بديلا ً عن ننجرسو في الإحتفال الرئيس لدويلة لجش، وأحيانا ً كان جوديا حاكم لجش(حوالي القرن الثاني والعشرين ق.م) يحلُّ أيضا ً محل ننجشزيدا في جرسو، وكان قد اضطلع بتلك السلطة الممنوحة له ليقدم نفسه بصورةٍ إسميةٍ في هيئة أو شكل ننجشزيدا ،حتى يتمكن من القيام يذلك الجزء في الإحتفال العظيم.

والده الإله نن- آزو(Nin-Azu) وهو اله مسؤول عن الطب والصيدلة ويعني اسمه (سيّد الأطباء) ووالدته الإلهة نن- جيردا(Nin-gir-da يعني اسمها:سيدة القصب المقدّس) ،أما زوجته ،فتشير النصوص المسمارية مرة ًعلى انها نن- آزيمو (nin-a-zi-mu) وهي إلهة مسؤولة عن نمو براعم الأشجار،وأخرى على أنها جيشتي- أنـّا (Geshti – anna) وهي سيدة كرمةِ العنب وأخت الإله دموزي ، تـُوصف بأنها بديلةُ دموزي في العالم السفلي لستّة أشهر من السّنةِ حيث يسْمحُ له بالعودة إلى الأرضِ من أجل ديمومة الحياة.

صورة 13



صورة 14



صورة 15 . أناء يؤرخ الى 2600 قبل الميلاد ،يظهر رجلاً يمسك بقبضتيه إثنين من الثعابين محاطين بأصناف من النباتات والحيوانات ، في إشارة الى الخصوبه وقوى الطبيعة . الأفعى أعتبرت رمزاً للخصوبة بعد الألفية الرابعة ق.م . ثم أصبحت بعد ذلك التاريخ رمزاً للصحة.

هنالك ختم إسطواني مثير للجدل،معروض في قاعات آثار الشرق الأدنى القديم في المتحف البريطاني يصوّر رجلاً مقرّناً جالساً على عرش وتقابله إمرأة جالسة هي الأخرى على عرش، تنتصب بينهما شجرة نخيل مثمرة، يبدو ثعبان كبير ينتصب واقفاً خلف المرأة مباشرةً. يعتقد بعض الباحثين (من ابرزهم جورج سميث) على ان المشهد المنقوش على الختم قد يمثـل (آدم؟)، الرجل الأول(أدابا في النصوص السومريّة) ، وأن المرأة ربما تكون حوّاء،وأن النخلة هي الشجرة المحرّمة و المقدّسة (بحسب روايات الكتب السماوية)، أمّا الثعبان فهو يمارس فعل الاغواء للمرأة /او لكلاهما حتى تأكل/ يأكلان التمر (صورة 16 أ، ب)


صورة 16 أ


صورة 16 ب

الأفعى/ الثعبان حارسا ً:

غالباً ما يرد في الأساطير السومرية ذكر الإله – الثعبان (ننجيشزيدا) بوصفه حامي العرش وحارس بوابة بيت الإله (آنو) ،إله السماء ورئيس مجلس الآلهة، يشاركه في ذلك إله الخصب (دموزي). ففي قصة أدابا*،الرجل الجكيم من أريدو يرد ذكره ليس فقط بصفته حارساً أو بوّاباً بل أنه يتكلّم مع آنو بالنيابة عن آدابا،ذاكراً محاسن أدابا وما يتمتع به من حكمة حيث يتمكّن من إقناع آنو بضرورة أن يمنح الخلود لأدابا وأن يقدّم له ماء وخبز الحياة ،أكثر من ذلك،يتكفّل ننجشزيدا بمهمة تطوير وتحسين ألإنسان (أدابا) الذي يُريدُ الحُصُول على الخلودِ للبشريةِ عن طريق "خبز و ماءِ الحياةِ ":

لأجل سكان بيت سيدي،في وسط المياه

كنت أصطاد سمكاً. وكانت المياه مثل مرآة

ولكن الريح الجنوبية جاءت هائجةً وأغرقتني

وجعلتني أهبط الى مواطن السمك، وفي لحظة غضب قلبي ، لعنت الريح الجنوبية

الحكيم الذي يعرف قلب الآلهة قدم نصيحة لأدابا:

يا أدابا إنك ذاهب لتقف أمام آنو،الملك

وعندما تكون قد صعدت الى السماء وتكون قد إقتربت من بوابة آنو

سيكون دموزي و نن- جيشزيدا واقفين عند بوابة آنو

ناطقين بجانبه، دموزي و نن- جيشزيدا خاطبا آنو بكلمة طيبة.

كما يهبطان الى العالم السفلي(عالم الأموات) لفترة محددة من السنة لأدامة دورة الحياة، ويعملان في حراسة بوابات العالم السفلي ومراقبة حركة الشياطين.

ان مهمة الحراسة هي من أهم واجبات ننجيشزيدا وأحبّها وأكثرها قرباً الى نفسه (3)، يتفاخر دائماً بأنه الحارس الأمين لبيت الآلهة الذي يحوي النواميس الإلهية وألواح القدر التي يتقرر بها مصير البشرية. من المؤكد أن هذه المهمة الحيوية والخطيرة لا يمكن أن يضطلع بها الا من ينال رضى وثقة الآلهة . أن إختيار نن- جيشزيدا لهذا الواجب المقدّس ينم عن خبرته في الحراسة وقابليته على صيانة وحفظ الأمانة، لهذه الأسباب أوكل له عمل البوّاب أو الحاجب دون باقي الآلهة حتى أولئك الذين هم من الصنف الأول من أمثال(إنليل،إنكي،أوتو،ننتار...الخ) فضلاً عن آلهة تعتبر من نفس صنفه ومنهم من يتمتع بمكانة وشخصية بارزة من قبيل(ننجرسو، نرجال،ننورتا).

كان رمز الأفعى يوضع على الجدران أو في واجهة البيت كتعويذة لاتقاء العين الشريرة والحاسدة ولمنع دخول الأرواح الخبيثة الى البيت، لأن الموقف منها كان ينقسم الى قسمين ، قسم يرى أنها تسكنها روح صالحة تحرس البيوت من الأذى ، وقسم آخر يرى فيها روحا شريرة تسعى الى الأذى (4) .

الأفعى/ الثعبان في الطبابة والمعالجة من الأمراض:

تعود الجذور الأولى لنشأة الطب في العراق القديم الى جذور سحرية ودينية واسطورية ...وكان جوهر الطب عبارة عن صراع بين عناصر سفلى شيطانية وعناصر إلهية.. لذلك يشرف على المريض كاهن ساحر طبيب يسمى (أشيبو A-Shi-bu) يقوم بدور الوسيط الروحي بالتوسط عند الآلة الشافية وردع الشياطين بالتعازيم والرقى ، وطبيب يقوم بفحص علمي يسمى (آزو A-zu) يقوم باقتراح العلاج من مادة طبيعية (صورة17) . وكانت شعائر الشفاء وتكوين الأدوية تعد شعائر دينية فكان المعبد هو أول عيادة أو مستشفى تؤدى فيه الطقوس وتتلى التعاويذ التي مايزال البعض يستخدمها حتى اليوم ولو حرف الإسم قليلا ً.. والتي تخلص المريض من سطوة الروح الشريرة..وكان العراقيون القدماء يعتقدون أن المرض غضب إلهي نتيجة ذنب أخل به النظام الإلهي فكان عقابه المرض الذي يؤدي به الى الموت أو يجعله يتوجع ليتذكر الآلهة ويتعظ .. إذا ليتم الشفاء فلا بد من تدخل شخص مقرب من الآلهة وهو الكاهن الذي يرجع ما سببه الإنسان من أذى للنظام الإلهي فيحاول (الأشيبو) ارضاء الآلهة بطقوس خاصة لترضى عن المريض.

صورة17 طبعة ختم إسطواني من عصر فجر السلالات الثالث(حوالي2600-2400 ق.م)، يُظهر نن-أزو(سيّد الأطباء) ،والد ننجشزيدا وهو يقوم بإعداد الأدوية، في مكان يشبه (مختبر صيدلاني)، أذ تبدو في المشهد نباتات وأعشاب ومجموعة من القدور والأواني.

اعتقد العراقيون القدماء بأن الحية خالدة لاتموت ، وأن تبديلها لجلدها بجلد آخر كل عام ، هو تجديد لحياتها كلما نال منها الهرم ، وربط بينها وبين القمر الذي يجدد حياته أبديا في دورة شهرية دائمة ، فيسلخ جلده القديم في طوره المتناقص ويلبس جلدا جديدا في دوره المتزايد.

يرد في ملحمة جلجامش أن أوتونابشتيم يدل جلجامش على نبات الخلود الذي يجدد الشباب وبعد حصوله عليه وهو في طريق العودة تأكله الحية ولذلك وبتأثير هذا النبات فإنها تجدد شبابها بنزع جلدها وتغيره الى جلد جديد وقد يكون رمز الحية مستمد كرمز للحياة والشفاء من هذه الأسطورة (6).

على ان هناك ما هو أكثر دلالة من ذلك ،إذ وصل إلينا كأس نذري لسكب الماء المقدس، مصنوع من حجر الستيتايت الأخضر يعود للملك جوديا حاكم لجش. الكأس مزين بنقش بارز يتكون من افعتين، ذكر وأنثى (هذه الخاصيته الثنائية جاءت للتعبير عن الاخصاب، حيث يأمل جوديا خصوبة أراضي مملكته عن طريق الأفعى الملتوية التي تصحبه) تلتفـّان حول عمود أو عصا أو قضيب(5) يرتفع الى فوهة الكأس وكأنهما تحاولان ان تشربا من السائل الذي يتدفق منه في حين يقف تنينان (موشخوشو) ذوي أجنحة خلفهما ، يمسكان بمخالبهما الأمامية بعصا ،وهذان التنينان المركبان لهما سمة الهية بدلالة التاج المقرن ،توجد كتابة مسمارية على بدن الكأس ، نصها:-(الى الإله ننجشزيدا،اله جوديا ،امير لجش،عسى حياته ان تطول،كرّس هذا[الكأس]). هذا الحيوان المركب ذي السمة الثنائية (ذكر وأنثى)،هو شعار الإله ننكشزيدا، بوصفه راعيا ًللطب واله الشفاء السحري والمسؤول عن الدواء وعن الطبيعة.

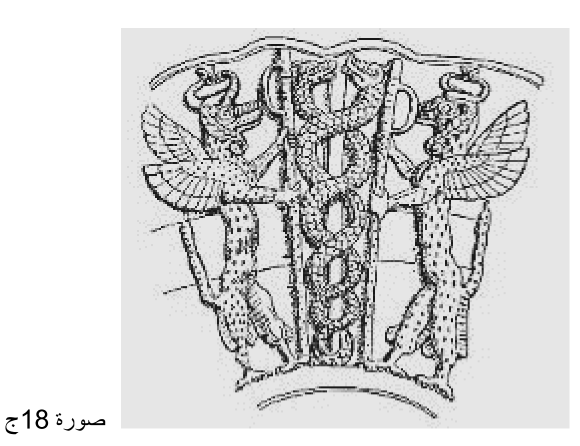
لذلك يمكن القول بأن صورة الثعبان مع الكأس الذي يضعه الصيادلة اليوم كرمز للطب والشفاء هو رمزعراقي قديم(سومري) يعود للقرن الثاني والعشرين قبل الميلاد.



صورة 18أ



صورة 18ب

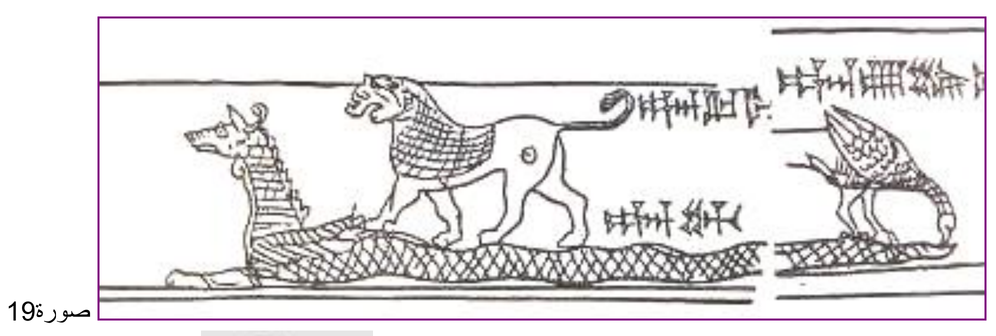


صورة 18ج



الأفعى في الفلك والتنجيم:

هنالك صورة للإله- الثعبان ننجشزيدا مطبوعة على لوح طيني(صورة19)،يعود الى فترة متأخرة من الحضارة العراقية القديمة (الفترة الفرثية أو السلوقية)،يبدو فيها ننجشزيدا بهيئة ثعبان عظيم،مكلل بالشعر,لديه قدمين أماميتين فقط تشبهان كف الأسد، يقف فوقه أسد. يُـعتقد أن المشهد له علاقة بالأبراج السماوية. والوصف نفسه ربما ينطبق على صورة الأفعى المنقوشة على العديد من أحجار جدود الأراضي التي تؤرخ الى الفترة البابلية الوسيطة(السلالة الكاشيّة)،حيث نقشت الأفعى- مع رموز أخرى لآلهة- بإعتبارها رمزاً للإله مردوخ(صور 20،21).



صورة19



صورة21



صورة 20

إشارات:

1- يطلق الأهالي في قرى وأرياف جنوب العراقي المنتشرة على ضفاف الأنهر والمسطحات المائية وبخاصة في مناطق الأهوار، صفة أفعى(في اللهجة المحلية: *آفة*) أو ثعبان (كذا: *عربيد*) على الأنهر والقنوات حين تتصاعد المياه فيها ويشتد جريانها، وقد يكون وصفاً للهول والدمار الذي تحدثه الأمواج العاتية وهي تبتلع قواربهم وأكواخهم. بالإضافة الى ذلك، فان الأهالي يتداولون روايات وقصص خيالية مرعبة عن إن افعىً عظيمة او ثعبان كبير الحجم، مكلل بالشعر، يستوطن أحراش القصب والبردي ويقوم بالإغارة ليلاً على القرى في الأهوار ملتهماً الأطفال الصغار والطيور والحيوانات الصغيرة، وغالباً ما تقوم الأمهات باستخدام ذلك حيلةً في تخويف الأطفال.

2- يرد في قصتي (نزول إينانا الى العالم السفلي) و (إينا – جلجامش وشجرة الخالوب) أن الأفعى (وقد وردت في القصة بوصفها رمزاً من رموز الشر الى جنب الشيطانة ليليث وطائر الأمدوجد الأسطوري) إستوطنت جذور شجرة الخالوب كي تخفي نفسها،وقد إستطاعت ذلك ،لأن شكلها يشبه جذور الشجرة،حتى أنها عندما استنجدت بجلجامش ، لم يستطع العثورعليها وقتلها (الأفعى) الا بعد ان بذل المزيد من الوقت والجهد. (*عند جذورها ضرب الحية التي لاتعرف الاغواء ... في تاجها اخذ طير الامدوجود صغاره واعتلى الجبال ... وفي وسطها خربت المرأة ليليث بيتها وهربت الى البوادي ... اقتلع الشجرة من جذورها ومزقها ما عدى التاج ... قطع ابناء مدينته الذين رافقوه اغصانها ... اعطاها الى انانا من اجل عرشها*).

3- ليس أدلّ على ذلك حالياً من أن أفعى أو ثعبان يقوم بمهمة حماية البيت وحراسته، يطلق عليها في الأرياف لقب(حيّة البيت)، وهي عادةً ما تكون وديعة و مسالمة.

4- يستخدم الناس في الأرياف والمدن - الى حدٍ ما – صورة أو مجسّم لكف انسان تتوسطه عين ويتخلل أصابعه ثعبان ، وذلك لاتقاء العين والحسد والروح الشريرة.

5-لاحظ ان هذا الرمز(العصا والأفعى) هو رمز رافديني(سومري) بإمتياز وقد وصل تأثيره الى الأقاليم والممالك القديمة، لذلك نجده حاضراً في العديد من الأساطير الشرقية القديمة وفي الأساطير الأغريقية بل وفي قصص وروايات الكتب السماوية. على سبيل المثال، نجد مايماثلها(زوج من الأفاعي يلتف حول قضيب محوري) في التراث الهندي في طقوس اليوغا كدليل لإنبعاثِ الحياةِ الأبديّةِ في الأرواحِ، حيث توقظ ألأرواح وتعود إلى الوعي بقوَّةِ الثعبانِ المتصاعدةِ. وطبقاً للأساطير اليونانية فان (هيرمس) وهو رسول الألهة ، لديه قدرات سحرية على ترويض الأفاعي بعصاه السحرية .والقضيب الذي يلتف عليه زوج من الأفاعي،وهو رمز (إسكلبيوس) اله الشفاء الإغريقي حيث كانت الثعابين موجودة في معبده المخصص لغرض الشفاء وكان بإعتقادهم ان أسكلبيوس يتجسد بهيئة أفعى لها القدرة على الشفاء. وان أبقراط الطبيب قد أستخدمها رمزاً له. والحال نفسه ينطبق على عصا موسى التي ورد ذكرها في الكتب السماويّة وكيف أنها تحوّلت الى أفعى تلتهم أفاعي سحرة مصر ممن جاؤا لإختباره.

6- أتذكر جيداً كيف أن النساء العجائز- والى وقت قريب- كن يستعملن مسحوق ذي لون قرمزي فاتح في معالجة التهاب العيون والأمراض الجلدية ، يستخرجنه من جلد الأفعى بعد سحقه . وكنت اشاهدهن حيث يفتشن جحور الأفاعي بحثاً عن جلودها التي تستبدلها بأخرى جديدة في كل سنة.

المصادر:

1. طه باقر: ملحمة جلجامش وقصص أخرى عن جلجامش والطوفان ، دار المدى الطبعة الخامسة 1986 .
2. فاضل عبد الواحد علي: عشتار ومأساة تموز، بغداد،1973.
3. فيصل الوائلي: من أدب العراق القديم.مجلة سومر،ج1و2،م19 ،مديرية الآثار العامة،بغداد 1963.

4. نائل حنون: شخصية الإلهة الأم ودور الإلهة إينانا / عشتار في النصوص السومرية والأكدية. مجلة سومر،ج1و2 ،م34، المؤسسة العامة للآثار والتراث،بغداد 1978.
5. ناجح المعموري: تقشير النص(قراءة في اسطورة اينانا - جلجامش وشجرة الخالوب).
6. . صبحي أنور رشيد وحياة عبد علي ألحوري: الأختام الاكدية في المتحف العراقي،منشورات المؤسسة للآثار والتراث،بغداد 1983.
7. صومئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية ، ترجمة يوسف داود عبدالقادر، مطبعة المعارف بغداد
8. ستين لويد، فن الشرق الادنى، ت: محمد درويش، دار المأمون، بغداد، 1988.
9. جنان شاكر حمدان: جوديا أمير سلالة لجش الثانية, رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد 2003.

10. Cirlot, J.A., A Dictionary of Symbols. Translated by J. Sage, London. 1962.
11. Collon, D., Ancient Near Eastern Art. British Museum Press. 1995.

12. Jeremy Black, Graham Cunningham, Eleanor Robson & Gabor Zolyomi. The Literature of Ancient Sumer. New York & Oxford. Oxford University Press.. 2004, 2006.

13. Balaji Mundkur.The Cult of the Serpent: An Interdisciplinary Survey of Its Manifestations and Origins. State University of New York Press, 1983.

14. Thorkild Jacobsen. The Treasures of Darkness, A History of Mesopotamian Religion. New Haven & London. Yale University Press. 1976.

15. Henrietta McCall. Mesopotamian Myths. [The Legendary Past series]. Austin, Texas. University of Texas Press. In co-operation with the Trustees of the British Museum, London. (1990, 1993).
16. Gwendolyn Leick. A Dictionary of Ancient Near Eastern Mythology. London. Routledge. 1991, 1996, 1997.
17. Michael Roaf. Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East.Oxford.England.2002.